إنها علاقة عمر

بقلم : محمود لطفي

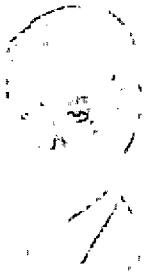

كانت المسافة التى تفصلنى عن فريد الأطرش هى نفسها المسافة التى تفصل بين الجمهور . . وبين الفنان !

كنت واحداً من جمهوره . . وواحداً من المعجبين بفنه .

ثم التقيت بفريد معنوياً قبل أن ألتقى به فى الواقع بخمس عشرة سنة !

لقد تم اللقاء بغير موعد . . وانتهى بغير وداع . . ومن يومها لم يخرج فريدمن قلبى دقيقة واحدة !

كنت مجرد تلميذ فى البكالوريا (الثانوية العامة الآن) . . وفى ذلك اليوم من صيف سنة ١٩٤٤ كنت أضع أذنى على جهاز الراديو ، مثل الآف غيرى .

إننا لم نكن متلهفين على سماع فقرة إذاعية ، أوحتى أغنية . . فالخبر الذى نحن جميعاً فى انتظاره . . كان هو أحلى أغنية !

فعلى عادة الإذاعة وقتها . . كان يوم إعلان النتجة . . هو اليوم الذى تذيع فيه الإذاعة أرقام جلوس الطلبة الناجحين . . كأسرع طريقة فى نقل خبر النجاح اليوم .

وانتظرنا الإذاعة بقلوب ترتعش . . وصبر فارغ .

كان الوقت هو الثالثة عصراً . . والمكان هو شبين الكوم عاصمة محافظة المنوفية .

لقد إنتهى المذيع من قراءة نشرة الأخبار ، ثم بدأ فى التعليق على الأنباء ، ثم انتهى التعليق على النبأ ، ثم .

غنى فريد الأطرش .

كانت الأغنية وقتها هى : عشك يا بلبل !

وكان إحساسى بالأغنية مؤجلا تماماً ، لأننى أريد أن أطمئن بسرعة على مصيرى بين الناجحين .

ثم بدأت الإذاعة . وعرفت خبر نجاحى ، وبعدها . . عدت من جديد إلى إحساسى بأغنية فريد الأطرش !

من يومها أصبح فى داخلى إحساس غامض وعام بالتفاؤل من أى شىء يوجد فيه فريد الأطرش ! إننى لم أكن أعلم بعد أن الظروف سوف تشاء لى بعدها بخمس عشرة سنة أن أكون محامياً لفريد . . ثم صديقاً له . . وشريكاً له فى « الحلوة والمرة » لمدة خمس عشرة سنة أخرى . . إلى أن انتقل إلى رحمة الله فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٧٤ .

وخلال تلك الفترة الطويلة أستطيع أن أقول إنى لم أعرف فيه فقط مجرد فنان أو صديق ولكن الأهم من ذلك . أننى عرفت فيه أطيب قلب . . وأرق إنسان . . وأعز أخ .

فى الواقع أن فريد كان يمثل التطرف فى كل شىء : فهو إما صديق . . أو لا . . وإما مخلص محب أو لا . . وإما يحب أولا . . ولكن لم يعرف الخيانة فى حياته ولم يعرف الغش فى حياته . . ولم يعرف الكراهية فى حياته.

كان يحب كل الناس ويتأثر من أية كلمة ولو صغيرة . . كان يصدق أى كلام يقال له . . ليس عن غفلة أو عته ولكن لأنه يثق فى كل من حوله . . ولايستطيع أن يصدق أنه يوجد إنسان يكذب . . وإذا كان يكذب على كل الناس

فعليه هو لا . . ولكن إذا تأكد فى أى يوم أن صديقاً كذب عليه . . فإن هـــذا الصديق لا يوجد له مكان بجواره . . ولا يقبل منه أى عذر .

كان يحب المواعيد . . ويحترم المواعيد . . ويكره من يزوره من غير ميعاد . . بل إنى رأيته يرفض مقابلة شخصية كبيرة حضرت له دون ميعاد . . ولم أستطع أن أقنعه بأن الرجل لم يعرف رقم تليفونه . . وأنه كان عابراً بالقاهرة ورأى أن يزوره زيارة حب وتقدير . . ورفض .

كان يكره اللثام . . صريحاً يقول ما يعتقد ويقول مايدور بذهنه وعلى الجملة تفكيره كان دائماً بصوت عال . .

كان محبوباً فى العالم العربى حباً لا أستطيع أن أصفه . . كان فى كل مكان حتى فى أوربا تجد المعجبين به وقد أخرجوا صوره من جيوبهم وقدموها له ليوقع عليها . .

كان متواضعاً شديد التواضع . . لا يتصرف على أنه فريد الأطرش المشهور . . ولكن كان دائماً فريد الأطرش البسيط . . لأن الشهرة لم تولد عنده نرجسية . . ولم تجعل منه إنساناً معقداً كغالبية المشاهير .

كان يأكل بيده حتى وهو فى أكبر مطاعم باريس . . فى مكسيم . . فى الفوكتس . . بجوار الملوك . . والأمراء . . والعظماء . ويقول يدى خير من الشوكة والسكين . .

كان يحب الأكلات الشعبية والبلدية . الكشرى ولحمة الرأس . . ولسان العجل أو الخروف وقرقوشة الودن . . وهذا يرجع لنشأته الأولى فى حى باب البحر . . وفى حى الظاهر والسكاكينى .

كان يغير ملابسه نادراً برغم وفرتها – فيظل يرتدى « الطاقم » الواحد . . بلوفر وبنطلون . . أو بدلة كاملة لمدة شهر . . حتى يجد من يخانقه ويجبره على التغيير . .

كان يتلف جميع ملابسه لأنه وقت الأكل لايعرف ماذا يفعل . . وتجد

جميع قمصانه وبلوفراته مملوءة بالبقع . .

كان يشكو من الوحدة . . ولم يكن يجد صديقاً يجاريه السهر حتى الصباح . . وكان يسهر حتى يصبح الصبح ليطمئن أنه إذا أصابه شيء يجد من يسمع صوته ويغيثه . كان لا يخاف الموت ويقول ابن تسعة لا يموت ابن سبعة . . لكل أجل كتاب .

كان مؤمنا إلى درجة عجيبة . . يؤمن بالله . . وبرسله جميعاً . . يضع فى صدره القرآن والصليب . . وتمثال العذراء . . ويقول دائماً الدين لله . .

كان إذا أحب أى شخص وقربه له لا يعنيه من هو . . أو ابن من هو . . أو عمله ماهو . .

كان لا يقبل من أحد أن ينقد أى صديق له . . وإذا حدث واجه الاثنين . . كان يعتقد فى كل الناس الطهارة والصدق ولا يقبل أن يغير رأيه . . وكم قاسى من بعض الذين قربهم له وهم على غير المستوى الواجب . . لمجرد أنه شخصياً مقتنع بهم .

وربما تكون آرائى فى فريد الأطرش هنا نتيجة لعاطفة ربطتنى به ، وقد تكون فى النهاية مضطربة لأنها تكتب عقب الحدث الذى هزنى وهز العالم العربى ، ولكنى أستطيع أن أقول إننى أكتب حقائق ، والحقيقة دائما أقوى من أى شيء .

إن فريد الأطرش كان فريداً فى كل شيء ، له طابعه المميز ، حتى إننى كنت أعبر عن تصرفاته بـ« الأطرشيات » .

كان إذا وعد لا يخلف وعداً ، وإذا تكلم لا يقول إلا صدقا ، وإذا لحن لا يعبر إلا عن إحساسه ، وإذا غنى لا ينطق إلا بما يجيش بصدره . .

كان إذا وعد بشيء ، أو ارتبط بعمل ، ينفذه كأنه كتاب مقدس لا يقبل التحوير أو التحريف . وأذكر أنه عام ١٩٦٢ كان يصور فيلم « حكاية العمر كله » من إنتاج رمسيس نجيب وصبحى فرحات وأثناء التصوير استحق له قسط لم يدفعه المنتج فرفض فريد أن ينزل إلى الأستديو حتى يدفع له القسط . .

وبرغم المحاولات التى بذلت لحمله على النزول منى ومن غيرى ، فإنه قال إن الارتباط هو ارتباط ، ولابد أن ينفذ غيرى التزامه فى موعده . .

وبعد اتصالات عديدة مع الكثير من المشرفين على الفيلم حضر صبحى فرحات إلى منزله وأعطاه المبلغ ، وهنا قال فريد :

– سأكون فى الأستديو بعد خمس دقائق . . .

إلا أن صبحى فرحات قال له :

ياأستاذ فريد ، فى الحقيقة أن المبلغ اللى أنا جبته استلفته وفيه مبالغ محولة لى من الخارج لم تصل ، وبكره الشغل سيقف لأنه لا يوجد عندى مايكفى ، وسأضطر لانتظار التحويل !

فما كان من فريد إلا أن قال له :

ولماذا يتعطل العمل ؟ يلزمك كام ؟

فقال صبحى فرحات :

– عشرة آلاف جنيه ! . .

ودفعها فريد على الفور ، ونزل إلى الأستوديو ، وصور ، واستمر العمل فى الفيلم ، والنتيجة الوحيدة ، واضحة ، وهى أن فريد لم يقبض القسط بل دفع فوقه خمسة آلاف جنيه من جيبه ، ولكن ، وبحسب تقديره فإن المنتج نفذ التزامه ، لأن دفع القسط شىء ، والقرض شىء آخر . . وهذا هو فريد !

وكان إذا تكلم لا يقول إلا صدقاً ، وأذكر أنه فى عام ١٩٦٥ تلقى طلباً من نيابة المالية بالقاهرة لسؤاله عن مبالغ صرفت له من تليفزيون الكويت ، ولم يقم بتحويلها إلى مصر طبقاً لأحكام قوانين النقد .

وجلست معه أحصر المبالغ التى بالكويت . وما دفعه فى لبنان من نفقات لعلاج والدته التى كانت مريضة بأحد المستشفيات ، إلى غير ذلك من الأعباء التى يتكبدها

أى شخص فى مثل مكانة فريد فى المجتمع ، وبعملية حسابية اتضح أن المبلغ الذى أنفقه بالإضافة إلى ماقام بتحويله إلى مصر هو سبعة آلاف دولار ، هكذا سيكون موقفه أمام النيابة المالية سلماً .

وتوجهت معه إلى دار القضاء العالى ، وجلسنا أمام رئيس النيابة الذى بدأ يسأله الأسئلة التقليدية : اسمك ، وسنك ، ومهنتك ، ومحل إقامتك ، فقاطعه الأستاذ فريد وسأله :

قبل كل حاجة عاوز أعرف المبلغ اللى بتسألوا عليه كام ؟ !

ولما كنت قد اطلعت على الرقم ولم أبلغه به ، فقد قلت له :

– ياأستاذ فريد ، دى أسئلة تقليدية ، لازم تجاوب عليها ، والمبلغ حوالى تسعة عشر ألف دينار !! .

فصرخ فريد :

– هذا كذب !

فقال له رئيس النيابة :

– إزاى بتقول إنه كذب ، والكشف قدامى وثابت منه جميع المبالغ اللى استلمها كل الفنانين فى الكويت وأنت منهم ؟ . .

فقال فريد :

– أيوه كذب !

وفاجأ رئيس النيابة بأن صحة الرقم هو ستة وعشرين ألف دينار ، أى بزيادة سبعة آلاف دينار !

وحاولت أن أضغط على رجله لكى لا يقول هذا الكلام ، لأن حسابنا مضبوط على تسعة عشر ألف دينار ، فقال باللفظ الواحد :

– أنت بتضغط على رجلى ليه ؟ ! أنا مش حاأغير رأيى . المبلغ زى ماقلت ،

وأن ما اتكتبش كده فى المحضر أنا مش حجاوب على أى سؤال . فوقعت فى ورطة كمحام ، وكان رئيس النيابة لطيفاً معه وقال له :

– أنا حاكتب فى المحضر كل اللى بتقوله ، لكن تسمع كلام محاميك !

فقال :

– لا ، أنا مصر على رأيى !

ولكن المفأجاة كانت فى قرار النيابة ، إذ قررت الإفراج عنه بلاضمان ، فى حين أن جميع الفنانين الآخرين أفرجت عنهم النيابة بكفالة تتراوح بين خمسين ومائة جنيه ، وكان هذا انتصاراً له لأنه قرر أن يقول الحقيقة .

وكان إذا لحن لايعبر إلا عن إحساسه ، ولهذا فإن ألحانه تدخل القلب مباشرة ، وحقيقة لا يعرفها الكثيرون ، وهى أن أعذب ألحان فريد كان هو صاحب كلماتها الأولى مثل « حكاية غرامى » و« بنادى عليك » و « سألنى الليل » . فهو كان يخلق كلمات مطلع الأغنية . ويعيش مع الجملة الموسيقية التى تدور فى ذهنه ، بل كان يلحن كلاماً أى كلام يكمل به الشطر الذى يتخيله ، ثم يدفع إلى المؤلفين بأفكاره ، ثم فى أيام يصبح اللحن كاملا ،والأغنية فى طريقها إلى الأستديو للتسجيل .

وكان إذا غنى لا ينطق إلا بما يجيش به صدره يردد دائماً الأغنية التى تعبر عن الظروف التى يمر بها ، حتى ولوكانت لغيره من المطربين ، وكان فى أيام الحفلات العامة يسأل ماذا أغنى فى الحفلة ، ويسمع رأيى ، ورأى غيرى ، ثم تبدأ البروفات للحفلة فنجده قد اختار أغنيات بعيدة عن طلباتنا وأسأله : طيب ليه؟ ؟ . ماتقول حاجة من الأغانى الجديدة ، أو تقول الأغنية الفلانية !

فيسكت قليلا ويقول :

– أنا حأغنى الأغانى الفلانية . . عارف ليه ؟ لأنى لازم أقولها . . ما أعرفش ليه .

وكان فريد صريحاً إلى أبعد حدود الصراحة ، ولكن فيما لا يضر أى إنسان . وأذكر أنه فى عام ١٩٦٥ ، كنت جالساً معه مساء ذات ليلة فى منزله بالجيزة نستعرض الأمور ، وفجأة دق جرس الباب ، وعرفنا أن الزائر هو أحد أصدقائه الأعزاء ، وهو رجل الأعمال محمد بركات وكان دائماً يحب أن يداعب الموسيقار من وقت لآخر ، وبعد أن سلم وجلس ، استأذن الموسيقار ليخلع جلبابه ، ويلبس بنطلوناً وقميصاً ليستقبل به زوار منزله ليلا من الأصدقاء الخلص ، وجلست أنا والسيد بركات نتحدث فى بعض الأمور . . .

واقترح بركات أن يداعب الموسيقار كعادته ، فأخبره بقصة سيقولها له بمجرد عودته من غرفة نومه ، وهذه القصة غير حقيقية ، وسيطلب من الموسيقار ألا يخطر بها أحداً . وراهننى السيد بركات بأن الموسيقار سوف يرويها للجميع بعد ساعة على الأكثر من وقت علمه بها ! . . .

وحضر الموسيقار الراحل ، وبدأ السيد بركات يروى القصة ، وتتلخص فى أنه عائد لتوه من أوربا . . وأن الطائرة التى كان قادماً عليها اضطرت للهبوط فى روما دون أن يكون هذا فى خط سيرها ، وذلك لأسباب فنية ، وأنه جلس فى مطار روما مدة ساعة وفى أثناء تجوله فى صالة الترانزيت بالمطار صادف أحد رجال الأعمال الألمان ، ووقع معه عقداً على صفقة كبيرة من المواد الكيماوية وأنه تليفونياً اتفق مع أحد التجار فى روما على بيعها ، وحققت الصفقة ربحاً قدره ٨٥ ألف جنيه استرلينى ! . .

وجلس رجل الأعمال يشرح للموسيقار كيف أن الإنسان يرزق برغم أنفه وأن القدر يتدخل كثيراً فى حياة الإنسان ، سعد فريد جداً لما أصاب صديقه وعبر عن سعادته بقبلة حارة وضعها على جبين الصديق ، وهنا بدأت مداعبة الصديق بركات لفريد ، فقال للموسيقار إنه بمناسبة هذه الصفقة ، واحتفالا بها يجب أن يدعو الموسيقار وجميع ضيوفه فى تلك الليلة إلى عشاء فاخر ! !

واقترح فريد أن يكون الطبق الأساسى هو الحمام المشوى ، وللعلم فإنه من الأطباق المفضلة إليه ! . .

ووافق رجل الأعمال محمد بركات وتم تنفيذ العزومة كاملة ، وجىء بالحمام المشوى من مطعم معروف ، وبدأت السهرة ، واجتمع جميع الأصدقاء أمام العشاء الفاخر ، وبدأ الموسيقار يحيي ضيوفه ويعطى هذا حمامة ، ويعطى تلك صـــدراً من حمامه ، ويوزع على كل من يجلس على المائدة أو يقف حولها ، وكنت أرقبه أنا والسيد بركات ، ونشعر أنه بتصرفاته هذه يحاول الابتعاد عن قول شيء أو إذاعة مايدور بذهنه وفجأة نطق الموسيقار فقال :

– ياجماعة أنتم عارفين مين اللى عازمنا الليلة ؟ ؟ . . اللى عازمنا محمد بركات عارفين ليه ؟ لأنه عمل صفقة اليوم ! . .

وبدأ فريد يسرد كل التفاصيل التى استحلفه الصديق بركات ألا يذيعها وأن يحتفظ بها سراً . . خوفاً من الحسد وكلام الناس . .

ولكن هذا هو فريد الأطرش ، لا يستطيع أن يفكر إلا بصوت عال ليعطى البرهان دائماً على شفافيته وصفاء نفسه . .

وكان الفنان الراحل يعيش للفن من أجل الفن ، وبعقلية فنان لاتحسب حساباً لشيء إلا للفن ! . .

وعاش فريد الأطرش حياة فنية طويلة قلقاً على فنه ، قلقاً على نفسه ، ضائعاً فى خضم طويل واسع لا يعرف له حدوداً ولا شواطىء، يبحث عن شيء أعتقد أنه لم يجده . . . .

ومع ذلك فلقد كان من صفات فريد الأطرش العناد الشديد حتى لو أضر بنفسه ، ويبدو وأنه فى هذا متمثلا بالمثل الدرزى المشهور « عنزة ولو طارت » وأعتقد أن حكاية

هذا المثل معروفة للقارئ اللبنانى ، ولكن قد يجهلها الكثير من القراء فى أنحاء العالم العربى . .

وتحكى الرواية أن أحد الأكراد كان يسير مع أحد الدروز ، ومشهور عن الأكراد والدروز العناد ، وجاء سير الاثنين فى المزارع ، فلفت الكردى نظر الدرزى إلى طير موجود بين الأشجار يبحث عن شىء يأكله . . فرد عليه الدرزى إن الذى يراه بين الأشجار واقفاً على الأرض ليس طيراً بل عنزة . . فقال له الكردى : يا أخى إنه طير ، هذا هو الدليل . وقذف بحجر فى اتجاه الطير فطار ! ! فرد عليه الدرزى : عنزة ولوطارت .

وكان من حكايات عناده حكايتان إحداهما رواها لى والثانية عشتها معه . .

أما تلك التى رواها لى ، فإلى القارئ تفاصيلها :

كان الموسيقار الراحل فى رحلة إلى الإسكندرية مع صديقه السيد عبدالرحمن سرور الصبان ، وكان قد سافر إليها بالسيارة لقضاء يومين على شاطئ عروس البحر الأبيض المتوسط ، وبعد أن أمضيا اليومين على أحسن ما يجب كل منهما . . طلب السيد عبد الرحمن سرور من صديقه الموسيقار أن يعودا إلى القاهرة بالطائرة بدلاً من ركوب السيارة ، فقال له الموسيقار إن المسافة واحدة ، على ماتروح المطار وتركب الطائرة وتصل إلى القاهرة وتأخذ تاكسى من المطار إلى المنزل تكون وصلنا بالسيارة . وهنا قال له صديقه : على أى حال يبقى تغيير يافريد ، ونكون مع بعض ! ! . . فرفض الموسيقار الإقتراح ، وأصر على السفر بالسيارة ، وقال لصديقه : يعنى أنت بتوجدنى أمام الأمر الواقع ، وليه ماخدتش رأيى فى هذا الموضوع ؟ على أى حال أنا مسافر بالسيارة ، وراح أحرمك تسافر بالسيارة ، وراح أحرمك من أن نكون معاً بالطائرة ، وأراهنك أنى سأكون بالقاهرة قبل منك يالى مسافر بالطائرة ! !

فقال له صديقه : طيب أنا أراهنك على مائة جنيه إذا حصل ووصلت القاهرة

قبل منى وقبل فريد الرهان .

ولما كان فريد يعلم فى قرارة نفسه أن حسابه خطأ ، وأن صديقه سيصل قبله إلى القاهرة فإنه بعناده الشهير أصر على أن يكون بالقاهرة قبل الصديق .

وأعد الموسيقار سيارته وأجلس السائق بجواره ، وجلس هو على مقعد القيادة ، وكان معه السيارة « الباكار » وهى بقوة « ثمانية سلندر » وتوكل على الله وانطلق على سرعة مائة وخمسين كيلومتراً فى الساعة ، وجلس السائق « محمد » يرتعد ويقرأ القرآن والموسيقار ينطلق بالسيارة غير مكترث لنقط التفتيش على الطريق الصحراوى ، ولما كانت المسافة بين القاهرة والإسكندرية حوالى مائتين وخمسين كيلومتراً ، فإنه على هذا المنوال سيصل إلى القاهرة بعد حوالى الساعتين إلا ربعاً ، فإذاوضعنا فى الحساب مداخل القاهرة التى لا يستطيع أن يسرع فيها بالسيارة أكثر من ٦٠ أو ٥٠ كيلومتراً فى الساعة وهى مسافة تصل إلى خمسة عشر كيلومتراً ، فإن معنى هذا أن الموسيقار سيصل فى ساعتين وكسور . . ولما كانت الطائرة تقطع المسافة من الإسكندرية إلى القاهرة فى نصف ساعة ، ونصف ساعة من مدينة الإسكندريةإلى مطار الإسكندرية فى ثلاثة أرباع الساعة من مطار القاهرة ، إلى منزل الموسيقار بالجيزة فإن حسابات الصديق تجعله يصل إلى منزل الموسيقار فى ساعتين إلا ربعاً . . معنى هذا أنه يوجد حوالى العشرين دقيقة بالزيادة فى رحلة الموسيقار . .

وعمل الموسيقار الراحل كل مايمكن ليصل فى موعده وقبل صديقه . . وفعلا وصل منزله وسأل البواب : هل الأخ عبدالرحمن وصل ؟ ؟ . فقال له البواب : لا ماوصلش ! !وهنا إنفرجت أسارير الموسيقار وارتاحت أعصابه . . وبمجرد أن جلس على كرسيه ، دق جرس الباب وإذا بالداخل الصديق عبدالرحمن سررو الذى وضع يده فى جيبه ، ودفع للموسيقار مائة جنيه قيمة الرهان . .

وهكذا أوصل العناد الموسيقار إلى المخاطرة بحياته الغالية على الملايين لمجرد أن

ينتصر على صديقه . .

أما الحكاية الثانية فهى من أروع الأمثلة على عناده وقد عايشتها معه . .

كان ذلك فى أثناء تصوير فيلم « زمان ياحب » وغير المخرج بعض مواقف فى الفيلم وحواره وأضيف إليه الحوار التالى :

« المنظر : فريد الأطرش يركب حماراً اسمه « ابوللو » ومعه الفنانة زبيدة ثروت بطلة الفيلم » .

وكان الحوار :

شوشو : أستاذ فريد ، تحب تسمع موسيقى .

فريد : بكل سرور .

وهنا يبحث شوشو فى رقبة الحمار عن شىء ، ثم يرفع يده براديو ترانزستور ، يبدأ الحوار التالى :

فريد : أنت كمان معلق له راديو ؟

شوشو : امال ياأستاذ ؟ ؟ أبوللو بيحب الموسيقى ، وخصوصاً أغانيك .

فريد : ماهو أصله حمار . .

وأعجبت القفشه فريد ، وأصر على أن تكون بالفيلم ، وفعلا تم التصوير ، ودعانى الأستاذ عبدالسلام موسى ، المشرف على الفيلم لرؤية الفيلم قبل عملية المكساج ، وحضر العرض عدد كبير من المشرفين على مؤسسة السينما .

وذهلت عندما سمعت الحوار ، واعتقدت أن به مساساً بالموسيقار .

وكان فريد فى لندن ،واتصل بى تليفونياً ، وقلت له رأيى إنه لابد من حذف هذا المشهد فقال لى الموسيقار : لا يامحمود ، أنا عاجبنى ! وسكت . . وحضر الموسيقار إلى القاهرة ، وبدأت أناقشه فى موضوع هذا المشهد ، فقال : يامحمود ، أرجوك اسكت ، أنا عاجبنى !

وسكت فعلا ، وعرض الفيلم فى بيروت ، وكان من عادته أن يطلب من أصدقائه أن يروا أفلامه ويقولوا له رأيهم ، ورأى الجمهور فى الصالة . . وذهبت فى زيارة له فى بيروت ، فطلب منى أن أرى الفيلم وفعلا شاهدت الفيلم ، وقلت له رأيى وزدت عليه رأى الناس فى الحوار الذى كان موضع خلاف بينى وبينه والسابق الإشارة إليه ،واتضح أن غيرى قال له مثل ماقلت ، فطلب منى الأستاذ فريد أن أتصل بالمؤسسة فى القاهرة لرفع هذا المشهد من الفيلم ، وعدت للقاهرة وقال المسئولون سبق السيف العزل لايمكن . . لأن النسخ توزعت . . وقلت لهم إن الأستاذ فريد مستعد يدفع كل التكاليف مهما كانت ولو وصلت عشرة آلاف جنيه ! ! فقالوا متأسفين . .

وظل الموسيقار فترة طويلة من الزمن متأثراً من هذه الواقعة ، وزعل جداً لأن المؤسسة لم تستجب لطلبه . .

وهكذا نرى فريد الأطرش عنيداً ، ولكن فيما لا يضر الغير ، ويصر على رأيه حتى ولو كان خطأ ثم يحاول أن يصلح ماأفسده الدهر حتى ولو كلفه مالا كثيراً . .

وفريد الأطرش كان عطوفاً على كل من حوله يحب صديقه ويتفانى فى حبه ، ولا يهدأ ولا يستقر إلا إذا اطمأن على أصدقائه واحداً واحداً . . وكان إذا سافر إلى بلد آخر خارج الجمهورية يتصل مرة على الأقل كل أسبوع تليفونياً ويسأل عن كل واحد باسمه ، وكان إذا جد الجدوأحس أن صديقه فى حاجة إليه ، سارع إلى الاتصال به ووقف بجانبه لينصره ويناصره إلى أن يمر بمحنته أو ظروفه القاسية على أحسن حال وهنا يهدأ الموسيقار ويستريح باله .

وأذكر أن صديقاً من رجال الصحافة المرموقين تعرض فى أوائل الستينات لقرار وقف عن عمله ، ووقف مرتبه ، وكان هذا القرار من جهة عليا لا تعقيب على قراراتها . . وكانت مراكز القوى تعتبر الاتصال بأى شخص مغضوب عليه خيانة وطنية ، جزاء من قام به أن يحبس . . أو يشرد . . أو يحارب فى رزقه ! . .

وظل المحيطون بفريد لا يخبرونه من أمر صديقه شيئاً ، إلى أن جاء اليوم الذى افتقده فيه الموسيقار فاتصل به فى مكتبه ، وعلم أنه بإجازة منذ مدة طويلة ، فاتصل بمنزله فعلم أنه غير موجود بالمنزل أيضاً ، فتوجه بنفسه إلى منزل الصديق سائلا عنه ، وهناك علم بما أخفاه عنه الأصدقاء فظل منتظراً فى سيارة أمام منزل الصديق ، وظل منزل الموسيقار وأصدقاؤه يبحثون عنه فى كل مكان إلى أن أصابهم القلق ، وبعد ساعات من الإنتظار الممل والقلق ، ودخل الموسيقار وهو أشبه بقائد عاد من ميدان القتال بعد أن لقن جيوش أعدائه درساً قاسياً وهزمها شر هزيمة ، ،وبسؤاله أين كنت وأين اختفيت . . هل هو حب جديد . . أو مـــاذا ؟ والكل فى لهفة لسماع الخبر فأجاب الموسيقار بهدوء شديد أنتم عارفين أن فلان موقوف عن عمله ؟ فأجابوه : أيوه . . ! !

– طيب ليه ماحدش قالى ؟ ؟

فرد أحد الأصدقاء :

– ماهو يافريد أنت عارف إن قرار إيقافه عن العمل قرار سياسى ، واحنا عارفينك ما بتعملش حساب للمسئولين . . وأنت فنان كبير ، ومش عايزين حد يزعل منك ! .

فرد فريد :

– كتر خيركم ، على أى حال أنا عرفت الموضوع كله . . وزرت الصديق واللى يجرالى يجرالى .

وكانت مشكلة ترقب الجميع نتائج ضارة لها تلحق بالموسيقار ، وفى أثناء الحديث دخل الصديق الموقوف ، وقبل فريد قبلة حارة ، ثم جلس ،ثم وضع يده فى جيبه وأخرج شيكاً قدمه للموسيقار قائلا إذا احتجت لشىء سألجأ إليك . . فرفض الموسيقار أن يمسه بيده ، وكانت المفاجأة أن كان شيكاً موقعاً على بياض من فريد

الأطرش . . تركه لأهل منزل الصديق لما يئس من حضوره . .

وهذا هو فريد ! !

وكان فريد أيضاً قلقاً دائماً عندما يقدم على أى عمل فنى . . تجده غير مستقر على حال . . لا ينام حتى يرتاح ، ولا يتسلى مع الأصدقاء بلعبة « الكومى » . . وأذكر أنه فى عام ١٩٧١ كان قد انتهى من إعداد أغانى فيلم « زمان ياحب » ، وكان البحث جارياً عن بطلة الفيلم ، ووصلت إلى بيروت لزيارته والإطمئنان عليه ، ووجدت أن شغله الشاغل أن يجد بطلة تقف أمامه فى فيلم « زمان يا حب » . . فقلت له :

– هل رأيت فيلم« . . . . .» وبطلته« . . .» وإخراج صديقك ومخرجك المفضل بركات . .

فقال :

– لا ! . .

فاتصلت بصديقه وصديق الأخ روبير خياط ، وسألته عن الفيلم المطلوب ، وهل عرض فى بيروت أو لا ، فاستمهلنى إلى أن يسأل الموزعين فى لبنان ، وفعلا وجدنا الفيلم فى بيروت فطلبت من روبير خياط أن يطلب النسخة ليراها الأستاذ فريد ، وفعلا قام السيد خياط باستئجار النسخة ، وألغى حفلة الساعة التاسعة بالسينما التى يملكها بالأشرفية ، وأمسك الموسيقار الراحل بالتليفون ودعا مجموعة من الأصدقاء لمشاهدة الفيلم فى عرض خاص ، وكان فى مقدمة المدعوين صاحب الموعد ، الأستاذ بديع سربيه وزوجته السيدة نادية ، والسيدة سلوى القدسى ، حبيبة قلب الموسيقار إذ لم يكن قد أعلن خطبته لها بعد . .

ودارت ماكينات العرض . . وشد الفيلم جميع الحاضرين ، واندمج الموسيقار مع قصة الفيلم وهو ينظر بعين خبير إلى البطلة وتحركاتها فى « الكادر » وروحها فى أداء الدور ، إلى أن ظهرت على الشاشة كلمة « النهاية » . ونظرنا جميعاً إلى الموسيقار

لنسمع قـراره ، ونظر هو إلينـا يتلمس قرارنا . . ونحن صامتون وبدأ هو يسأل وكان أول الذين سألهم الموسيقار الأستاذ محمد بديع فقال رائعة ! . . وقالت السيدة سلوى القدسى : ممتازة تليق للدور معك يافريد ! ! . .

وقال روبير خياط : أنا واحد باشتغل فى السينما من زمان ، وأقدر أقول هايله جداً . . ونظر إلى الموسيقار الراحل فقلت :

– أنا قلت لك إنها ممتازة وتستحق الدور ! . .

وسكت الموسيقار وخشينا جميعاً ألا يكون مقتنعاً بما نقول ، وفجأة قال : على خيرة الله !

ووجه لى الكلام :

والنبى ياأخ محمود تتصل بالأستاذ عبدالسلام موسى ، المنتج المنفذ للفيلم ، ومندوب المؤسسة بفندق « كارلتون » وتبلغه قرارى وعلى الله نتوكل ونشتغل ! . .

وبحثت عن تليفون فإذا بتليفون السينما معطلا ، فابلغت الأستاذ فريد فقال :

– طيب لما نوصل البيت نطلبه . .

وما كدنا نصل البيت – بيت الموسيقار – حتى أمسك هو بالتليفون . . وطلب فندق كارلتون :

فريد : الأستاذ عبدالسلام موسى . .

عاملة التليفون : دقيقة من فضلك ندور عليه . .

وبحثت عاملة التليفون عن الأستاذ عبدالسلام موسى فلم تجده ، فقالت متأسفة تحب تسيب رسالة ؟

فقال : أيوه من فضلك ادينى المختص . . .

وحولت عاملة التليفون المكالمة إلى المختص ، وهو الموظف الذى يعطيك مفتاح غرفتك بمدخل الفندق ، ودار حوار رواه لى الموسيقار فيما بعد .

فريد : من فضلك عايز اسيب رسالة للأستاذ عبد السلام موسى . . أنـا فريد الأطرش .

عامل الفندق : مرحباً يا أستاذ . . يا أهلا وسهلاً . . اتفضل قول يا أستاذ . .

فريد : الأخ الأستاذ عبد السلام موسى وقع اختيارى على الفنانة « . . » للقيام بدور البطولة أمامى فى الفيلم أرجو إخطار الأستاذ محمد رجائى مدير الإنتاج بالمؤسسة بالقاهرة ليتعاقد معها . .

عامل التليفون : ده معقول ياأستاذ أنت تقوم بالتمثيل أمام هذه الممثلة . . دى مين دى « . . . . » ياأستاذ اللى تمثل قدامك . .

فريد : طيب أرجوك الغ الرسالة .

وكان قرار فريد أن هذه الفنانة لا تصلح للقيام بدور البطولة أمامه ، لأن هذا رأى الجمهور والجمهور هو كل شىء فى حياة فريد الأطرش ، ولذا كان يسميه دائماً : الحبيب . .

وهذه هى صفات فريد التى ستظل خالدة فى حبه لفنه . . وقلقه على فنه . . واحترام رأى جمهوره مهما كان . . ولم تكن نظرة فريد إلى جمهوره هى نظرة الفنان للذين يصفقون له ويعجبون به . لا . فريد كان يرى هذا الجمهور باعتباره الشعب . . وهذه الأمة . . وهذه الأرض.

إن هذا يجعلنى فى حاجة إلى تسليط الضوء على مشاعر فريد نحو وطنه .

لقد كان الموسيقار الراحل صورة مجسمة للوطنية محباً لبلده يعتز بمصريته . يشارك بروحه وإحساسه فى كل مناسبة وطنية ، وكان يتألم كثيراً إذا لم يستدعه أحد للمشاركة بفنه فى عيد وطنى .

وكانت احتفالات ٢٣ يوليو « تموز » من كل عام تمثل بالنسبة له . . حسرة وألماً ، ويظل يجوب أرجاء منزله ، ويحدث نفسه . . لماذا لم يستدعنى أحد للمشاركة

فى العيد ؟ ! هل يجوز لى أن أقتحم الحفل ومعى الفرقة الموسيقية وأقول : أنا عايز أغنى وأشارك . . وهل يليق بالفنان أن يقف على بالباب وبطرقه ويقول : يـا ناس لازم أكون معاكم فى الليلة دى ؟ ؟

ثم يجيب فريد : أبداً ، لايمكن أن يحدث مثل هذا ، أنا قاعد فى بيتى لغاية ما يعرف المسئول عن هذا الحفل ، أننى موجود ، ولا يليق بى أن أذهب إلى مكان الاحتفال دون دعوة . . والرئيس عبد الناصر وضيوفه قاعدين . . وأعمل غلطة بروتوكولية ! . .

وفى عام ١٩٦٧ كانت النكسة وبدأت الدماء تغلى فى جسد الموسيقار المريض ، وبدأ الحزن يسيطر على حياته لما أصاب بلده ورفض أن يعود إلى القاهرة الكسيرة ، وفجأة انتفض الموسيقار الراحل وطلب مؤلف الأغانى عبد الجليل وهبى ، وجلس يشرح مرة أخرى ، وأنه لازم نحارب لازم نحارب لازم نعمل حاجه ، وأن العرب إذا كانوا قد خسروا معركة ، فليس هذا كافياً أن نستسلم للكلاب . . وهذا تعبيره بالحرف الواحد . . .

وفى اليوم التالى حضر إليه الشاعر عبد الجليل وهبى وسلمه نشيداً ، هذا النشيد هو نشيد « شعبنا يوم الفدا » ومقاطع النشيد تقول « لا تقل ضاع الرجاء . . إن للباطل جولة . . وفى نهاية النشيد « أذان » ينادى على العرب « الله أكبر الله أكبر . . لا إله إلا الله » . .

وبدأ الموسيقار الراحل تلحين النشيد وانتهى منه ، وبدأت البروفات مع الفرقة الموسيقية ثم توجه للاستديو لتسجيله ، واتصل بصديقه الأستاذ جلال معوض لأخذ رأيه فى الكلمات . . فهنأه على حسن إختياره . .

ثم أخذ الموسيقار قراره : لابد أن أرسل هذا النشيد إلى جميع الإذاعات العربية ليذاع فوراً ، وطلب من الأستديو إعداد النسخ اللازمة بعدد الدول العربية ، وتوجه

إلى السفارات العربية فى بيروت ، وسلم كل سفير نسخة ، واستدعانى من القاهرة ، وسلمنى نسختين لإذاعة القاهرة ، وأحضرت الشريط وأذيع . .

وبعد أسبوع تلقيت مكالمة تليفونية من الموسيقار الراحل وأبلغنى أنه ليس كافياً مافعله لابد من تصوير النشيد تليفزيونياً ، وقلت له : فكرة كويسة . . وفى اليوم التالى كان استديو ١١ فى تليفزيون لبنان يبنى الديكورات ، وبدأ التصوير ، وأرسل لى نسخة من الفيلم سلمتها لتيلفزيون مصر . . وقام هو بتسليم النسخ إلى السفارات !

وهدأ فريد ، ودفع كافة التكاليف من جيبه الخاص . . وقال : ده أقل شىء أعمله نحو بلدى . . ياريتنى أستطيع أن أحارب . . ياريتنى كنت فى حالة صحية تسمح لى بأنى ألف على جميع المعسكرات للجيوش العربية . . وأغنى لإخوتى الجنود هذا النشيد . .

* * *

وتحضرنى فى هذا المقام رائعة أخرى ، فى أكتوبر ١٩٧٣ . كنت مع الموسيقار فى باريس وتركته الساعة الثالثة ليستريح بعض الوقت على أن أعود له فى السابعة مساء .

وفى الساعة الخامسة استمعت إلى الإذاعة التونسية وكان الخبر الأول عندها هو قيام الحرب فى الشرق الأوسط ، ودخول مصر الحرب ضد إسرائيل ، وأن مصر انتهزت فرصة عيد الغفران عند اليهود وهاجمت الجيوش الإسرائيلية فى سيناء . .

واتصلت تليفونياً بالموسيقار الراحل فى فندق « البرنس ديجال » وقال عامل التليفون إن الموسيقار طلب عدم الإزعاج . . وعدم تحويل أية مكالمات إليه قبل الساعة السابعة فقلت لعامل التليفون . . أنا صديقه ومحاميه ، وعندى رسالة عاجلة من القاهرة تهم أعماله . . ولابد من أخذ رأيه فى الموضوع . . وأرد على القاهرة حيث ينتظرون أخذ رأينا لتوقيع عقد هام . .

وبعد حوار طويل وافق عامل التليفون على أن يحول المكالمة للموسيقار ، فاستبطأ

فزعاً ، وقال : خير يامحمود . . لازم فيه حاجة وحشه . . أرجوك ماتخبيش على . . .

وقلت له : مصر حاربت إسرائيل ، والرئيس السادات أمر بالحرب . . . ! .

فرد الموسيقار : الحمدلله ، هذا أسعد خبر أسمعه منك ، أنا دلوقت استريحت ، لازم كان يحصل كده . . لازم نموتَ كلنا يامحمود . . ولا يبقى الحال كما هو عليه . . تعال فوراً علشان نتابع الأخبار . .

وجلست معه فى جناحه فى الفندق ، كان معه فى رحلته هذه خطيبته السيدة سلوى القدسى ، وجلس الموسيقار أمام التليفزيون ، وجلست أنا أدير مفتاح الراديو باحثاً عن المحطات العربية أو إذاعة القاهرة ، ولكن بدون جدوى ، وكانت الأخبار التى يذيعها التليفزيون الفرنسى كلها سيئة وضد العرب ، وقال الموسيقار : أنا باعتقد يامحمود إن فيه تحيز . . اطلب لى القاهرة ، واطلب لى بيروت .

وظل على نار يترقب المكالمتين ، وإذا بأخبار القاهرة مطمئنة جداً ، وإذا بجنودنا قد عبروا ، وإذا بالجيش المصرى قد استقر على الضفة الشرقية للقنال ، وإذا بأخبار بيروت مطمئنة أيضاً . . فإن الجيش السورى انطلق من الجولان ، وبدت الفرحة على وجه الموسيقار ورأيته وكأن عمره قد نقص عشرين عاماً ، وكأنه قد شفى من جميع أمراضه ، وقال : مش قلت لك فيه تحيز . . الحمد لله أنى عشت حتى رأيت هذا اليوم . . سأرسل برقية للرئيس السادات أهنئه ، وبرقية للرئيس الأسد ، أهنئه . . هات ورقة وقلم .

وكتب البرقيتين وأرسلهما . .

وفى هذه الليلة لم يخرج من الفندق ، وظللنا جالسين نتابع الأخبار ، ونشترى جميع طبعات الجرائد . .

وجلس يفكر فى الانتصار ، وقال لازم ترجع مصر على طول علشان أكون جنب إخوتى الجنود فى هذه الأيام التاريخية . .

– ولكن المطار مغلق يا أستاذ فريد ولا يمكن تسمح لنا القوات المسلحة المصرية باستعمال المطارات المدنية فى هذه الظروف . .

وقال : ده صحيح . .

قلت : إذن ، لازم نسافر إلى لندن لأن ميعادك مع الدكتور جبسون يوم ١٩٧٣/١٠/١٠ وثق أن علاجك والاطمئنان على صحتك عمل وطنى تخدم به بلدك . .

وسكت الموسيقار ، ثم تكلم وسألنى :

« طيب ، وأنت حتعمل ايه يامحمود ؟ . . مش ممكن أسيبك لوحدك فى بلد زى ده . . لازم تسافر معايا على لندن لغاية المطار مايفتح وترجع مصر معايا . . .

فقلت له :

– طيب سيبك من الموضوع ده . . وماتحملش همى . .

فقال :

– إزاى ماحملش همك ؟ ؟ بكره الصبح أنا رايح معاك على القنصلية البريطانية فى باريس وأطلب لك تأشيرة . .

وذهبنا فى الصباح وأصر القنصل البريطانى على ضرورة استئذان القنصلية البريطانية فى القاهرة والحصول على موافقتها على منحى التأشيرة . . وتضايق الموسيقار وظل يفكر ماذا يفعل حتى يطمئن على قبل سفره إلى لندن . .

وبعد ثلاثة أيام داوم على الاتصال فيها بالقاهرة وبيروت ، وعرف أن كفة الحرب قد مالت نحو العرب ، وأن العرب لقنوا الجيش الإسرائيلى درساً لن ينساه ، وأن خط بارليف قد إنهار . . علمنا أن مطار بيروت مفتوح للطيران المدنى ، وذهب معى إلى شركة الطيران ، واستبدل لى تذكرتى إلى بيروت . . حتى أذهب إلى بيروت وأبقى هناك إلى أن يفتح مطار القاهرة . .

واتصل الموسيقار بأخيه منير فى بيروت ، وطلب منه أن يحجز لى بفندق « بريستول » وأن يرعانى طوال غيابه عنى . .

ثم قال يامدام سلوى أرجوك تعودى مع محمود إلى بيروت علشان تكونى فى رعاية محمود وأنا غايب ، وكمان أنت عارفه ظروف المستشفيات وبقائى فيها ، وأنا لاأطمئن فى لندن لوحدك ولا أحب أن تكونى فى أى فندق . . وأنا داخل المستشفى . . لأنى لا أطمئن عليك إلا إذا كنت أنا بجوارك . .

وعدت مع السيدة سلوى القدسى إلى بيروت وبقيت هناك ، وإذا برقية تصل بعد أيام للأخ روبير خياط ، وهو من أخلص أصدقاء الموسيقار الراحل ، بأن الموسيقار عائد إلى بيروت بعد أن انتهت إقامته فى المستشفى واطمأن الدكتور جبسون عليه .

ذهبنا إلى المطار ، كل أحباب فريد وأصدقائه ، لنستقبله . . ونزل علينا من الطائرة سعيداً بعودته سعيداً بنصر العرب ، ولمحنى بين المستقبلين وضحك ضحكة عريضة وقال :

– الحمد لله ، أنت لسه هنا ، دى فرصة عمرى أنى لقيتك موجود فى بيروت ! .

قلت :

– ليه خير . .

فقال :

– خير . . أنا عايزك تقعد معايا كام يوم . . إن سعادتى لا حدود لها أن أجد صديقاً يكون بجوارى . وأنت خير صديق . .

كان هذا هو فريد فعلا

فلقد كان فريد الأطرش إنساناً عطوفاً ، يحب الخير ويسعى إليه ، وإذا سمع عن صديق مريض سارع لزيارته ، وإذا سمع عن شخص فى حاجة إلى مساعدة بادر بمد يد العون له خفية . .

وأذكر فى عام ١٩٦٦ كانت حالة فريد الصحية سيئة جداً ، وتورمت قدماه ، وأصبح لا يقوى على الحركة . . حتى خشينا عليه أن تكون النهاية . .

ولسوء حظه كان فى هذه الحالة السيئة ، والعمل جار فى فيلم « الخروج من الجنة » أمام الفنانة هند رستم ، وكان بين الشوت والشوت يخلع حذاءه ويتمدد على كرسى ، ويرفع رجليه إلى أعلى حتى يخفف الالآم وطلبت منه أن يتوقف عن العمل فقال : كيف أقف يامحمود ؟ ! أنت شايف العاملين فى الفيلم قد إيه ؟ ؟ والمؤسسة ذنبها ايه يتعطل العمل فى الفيلم ؟

والفنانون ذنبهم ايه . ماهو كل واحد عايز يخلص علشان عنده شغل تانى . . ولم نجد بداً نحن أصدقاء فريد نرقب الحالة ونستشير الدكتور عوض إبراهيم ، إلا أن الحالة زادت سوءاً وتضخم القلب ، وتضخم الكبد ، واتصل الدكتور عوض إبراهيم بالموسيقار محمد عبدالوهاب الذى اتصل على الفور بى وعرف الحالة ، ثم بادر إلى الاتصال بالدكتور محمد عبدالقادر حاتم نائب رئيس الوزراء ووزير الثقافة والإعلام فى ذلك الوقت ، والمسئول عن مؤسسة السينما حيث تتبع وزارته .

وكان الدكتور عبدالقادر حاتم رقيقاً إذ بمجرد سماعه الخبر ، ذهب إلى ستديو نحاس بنفسه حيث يجرى العمل فى الفيلم ، ودخل الدكتور حاتم ليفاجأ بالموسيقار الكبير الراحل جالساً على كرسى وقد خلع حذاءه ، وسأله عن صحته ، فقال له الموسيقار الحمد لله . .

ونظر الدكتور حاتم إلى المخرج ، وإلى المسئولين بالمؤسسة ، وأصدر قراره على الفور : « بوقف العمل بالفيلم ، وتتخذ إجراءات سفر الموسيقار فريد الأطرش إلى لندن للعلاج فوراً وعلى نفقة الدولة » .

وقال له الموسيقار : ألف شكر يادكتور . . وأنا أشكرك وأشكر الدولة . . الحمد لله عندى مايكفينى ، بس كل اللى بطلبه هو أن تحول المبالغ اللازمة للعلاج

من مصر ، وأنا أدفع هنا القيمة بالجنيه المصرى ! . .

فوافق الدكتور حاتم على الفور .

وبعد أيام تحسنت صحة الموسيقار وكنت فى باريس وخاطبته تليفونياً ، وطلب منى الحضور إلى لندن ، وفعلا ذهبت لزيارته هناك ، واطمأن قلبى على صحته ، واستأذنته فى السفر للقاهرة لمناسبة عيد الأضحى الذى كان باقياً عليه عدة أيام ، فشد على يدى وقال : مع السلامة بس فيه حاجة مهمة !

قلت له : خير . .

قال : لاتنس أن تقوم بالواجب نحو إخوتى المؤلفين والملحنين الفقراء !

قلت : أى واجب ؟

قال : اخص عليك يامحمود ، نسيت . . العيدية . . كل سنة وأنت طيب . . الأيام القادمة عيد . . والمحتاج ينتظر ليكسى أولاده ويفرحهم . . أرجوك ادفع كالعادة وزود المبلغ شوية . . وقولهم . . ادعوا لفريد بالشفاء . . وإن شاء الله العيد القادم نعيد كلنا مع بعض فى القاهرة . .

وكان الموسيقار الراحل شجاعاً ، لدرجة التهور . كان دائماً يقول الرب واحد . . والعمر واحد وأذكر أنه فى عام ١٩٧٣ أصيب الموسيقار فريد الأطرش بداء « النقرس وكان يأخذ أدوية كثيرة . . وفى أثناء وجوده فى القاهرة قاسى منه كثيراً ، وكان مرتبطاً بعمل فى بيروت ، وقرر السفر وفى الموعد المحدد وحسب العادة المتبعة ، وعلى طائرة الشرق الأوسط التى تغادر القاهرة الساعة الرابعة إلا عشر دقائق بدأنا نستعد لسفر الموسيقار ، وذهبت إليه الساعةالواحدة بعد الظهر وجلسنا نناقش بعض الأمور الخاصة به ، ثم بدأ يعد حقائبه ، وكانت معه خطيبته السيدة سلوى القدسى وبدأنا طريقنا إلى الأسانسير . .

وقلت له : طيب أنا نازل أجيب سيارتى على الباب علشان ماتمشيش وتركب

على طول ، لأن النقرس مضايقك ! .

فقال : طيب ، بالله وأنا وراك على طول . !

ووقفت على باب عمارته عشر دقائق فى انتظاره ونظرت نحو الأسانسير فوجدته فى الدور العاشر ، وفى طريقه إلى الدور الأرضى وفجأة فتح باب الأسانسير ، ولقيت أحد العاملين فى منزل فريد يبكى ويقول : الحق . . الحق . . اطلع فوق . . الأستاذ وقع على الأرض . . عاوزين دكتور اعمل معروف . !

فأخذت المصعد إلى الدور العاشر ، لأجد الموسيقار الراحل جالساً على كرسى بجوار سريره ولونه شديد الصفار ، وفى حالة شبه انعدام وزن ، وكانت لهفتى على الموسيقار وعلى حياته سبباً فى أننى لم ألحظ شيئاً هاماً . . إذ كانت السيدة سلوى القدسى ممدة على الأرض ومغمى عليها ، وكلمنى الموسيقار بصعوبة قائلا : ماتخافش يامحمود ، الحمد لله فاتت على خير . . بس شوف سلوى . .

ونظرت إلى الجسد الممدد وتطلعت فى الموسيقار ، وارتبكت ، وبدأت أبحث عن الدكتور ، وناديت على أحد العاملين بمنزله ليعاوننى فى رفع السيدة سلوى عن الأرض ، وبعد محاولات بدائية أفاقت السيدة سلوى ، وارتاح الموسيقار وقال : يامحمود ، أنا جات لى دوخة . .ووقعت على الأرض . !

وقال : أنت عارف النور لما يكون بينسحب من اللمبة الكهربائية . . وتخفت شيئاً فشيئاً إلى أن يعود الظلام وينقطع التيار . . هذا ماشعرت به . . ووجدت نفسى والدنيا تدور بى . . والظلام يخيم على الحجرة ببطء شديد ، إلى أن أظلمت الدنيا كلها . . ولم أدر بنفسى إلا وأنا على الأرض ، ولم يستغرق ذلك نصف الثانية ، وغبت فترة أعتقد أنها لا تزيد على ثانية ، وفتحت عينى فإذا بى أجد سلوى ملقاة على الأرض . . فبدأت أتحسس جسدها وأنا فى شبه غيبوبة . .وحضرت أنت . .

قلت : الحمد لله . . وحمدالله على السلامة . . واحنا طلبنا الدكتور

وزمانه جاى . .

وكانت المفاجأة عندما قال : دكتور ايه ؟ فاضل قد ايه على ميعاد الطائرة ؟

قلت له : مافيش سفر النهارده . وعلى أى حال لا بكلامك ولا بكلامى . . ننتظر الدكتور وقراره !

فقال : أنا مسافر . . هاتوا الشنط أحسن الطيارة تفوتنى !

وبكى كل من فى المنزل ، وبكت السيدة سلوى وقالت : دخيلك ياأستاذ محمود ماتخليه يسافر . .

فرد الموسيقار : أنا مافييش حاجة . . ماأنت شباب يامدام سلوى ايه اللى وقعك على الأرض . . ياالله يامحمود نتوكل على الله . . ونزلنا .

وفى مطار القاهرة كانت المفاجأة ، إذ وجدنا الميكرفون ينادى الموسيقار الكبير ، وتوجهت إلى الموظفة المختصة وسألتها : خير ؟ مين عايز الأستاذ فريد ؟ فقالت مطلوب لإدارة المطار . .

وحضر أكثر من مسئول فى المطار ، وقالوا : اتصل بنا الموسيقار محمد عبد الوهاب ومعه الدكتور عوض إبراهيم الطبيب المعالج ، وطلبوا منع سفر الأستاذ فريد لأسباب صحية ، ومحافظة على حياته . .

ورد الموسيقار العنيد : اشكروا الأستاذ عبد الوهاب . . واشكروا الدكتور عوض . . العمر واحد والرب واحد . . وابن تسعة لايموت ابن سبعة . . أنا مسافر على هذه الطائرة .

وودعنا ، وقبلنا ، وركب الطائرة ، وفى المساء اتصل بى من بيروت وقال الحمد لله . يامحمود العمر واحد والرب واحد . .

وفريد كان فى الواقع يتمتع بحاسة سادسة . . كما يقولون ، وكان يحس بأى شىء قبل وقوعه وكانت له نظرة فاحصة فى من حوله يفتش عن شىء يخفونه عنه . . وكانت

هذه عادته لكثرة ماأخفى عنه من أخبار وأمور حريصاً على صحته . . وحتى لا ينفعل فيؤثر ذلك على حالته الصحية . .

وأذكر أنه فى عام ١٩٦٧ كنت فى زيادة لبيروت ، وكان يقيم آنذاك بفندق « بريستول » بالجناح ٥١٦ ، وأنا بالغرفة التى بجواره ٥١٧ .

وكان المتبع أن أدخل عليه الساعة الثانية عشرة ظهراً ، فإذا كان نائماً أيقظته . . وإذا كان مستيقظاً نجلس نستعرض بعض الأمور الخاصة . . والعامة . .

وذات يوم أيقظتنى شقيقه فؤاد من النوم ، وكانت الساعة السادسة صباحاً وقال لى : أرجوك تنزل بسرعة . . .

قلت له : خير . .

قال : بس تعال ونتفاهم مع بعض .

ونزلت على عجل لأجد فؤاد الأطرش مرتبكاً وقال : والدتى ماتت ، ومش عارف أتصرف إزاى . . قلت : ندفنها والبقية فى حياتك . .

قال : يفريد نعمل فيه أيه ؟

قلت : نسيبه نايم لما يصحى فى ميعاده . . وبعدين ربنا يدبرها . .

وذهبت مع الأخ فؤاد إلى بلدة« شوبت » فى جبل لبنان ، حيث تم دفن المرحومة « علية المنذر » وكانت مراسم الدفن جديدة على ، إذ وجدت شيوخ الدروز قادمين من كل مكان من الجبل ، وكانت عمائمهم البيضاء ملفتة للنظر ، وحملوا « النعش » على أكتافهم وهم يكبرون بذكر الله ورسوله إلى أن وصلنا إلى المدافن ، وهناك وضعوا التابوت الذى بداخله جثمان الراحلة وبدءوا يصلون عليها صلاة الجنازة . . ويكبرون الله أكبر . . لاإله إلا الله . . محمد رسول الله . . ووضع التابوت داخل المقبرة . . وانصرفنا إلى منزل أحد أقربائها .

وجلسنا فى غرفة الاستقبال صامتين إلى أن قطع شيخ العقل الصمت وقال :

« العوض بسلامتكم » . . وهى عبارة مماثلة لما نقوله فى مصر « البقية فى حياتكم »
ثم قال : الموت حق . . والحياة ممر وليست مقراً . . وكل من عليها فان . .

وعدت إلى فندق « بريستول » متأخراً عن الموعد المعتاد مع الموسيقار حوالى ساعتين . وعلمت من موظف الإستقبال أن الموسيقار الراحل سأل عنى كثيراً . . فتوجهت إلى غرفته فوجدته جالساً يقرأ بعض الصحف والمجلات ، سألنى : كنت فين يامحمود . . أنا قلقت عليك . .

فقلت : والله كنت فى مشوار . . .

فنظر إلى محاولاً أن يستشف شيئاً . . وكان يبدو على بعض الضيق ، فسألنى : إيه مالك يا محمود ؟

قلت : أبدا صحيت بدرى شوية . .

وقررت أن أتحمل عبء مواجهة الموسيقار وأخطاره بفقد أمه . . أعز إنسانة فى الوجود بالنسبة لأى شخص .

وعاد يسألنى : مشوار أيه ؟ هـو أنت بتروح مشاوير من ورايا . .

قلت : والله هو مش مشوار يخصنى . . إنما الصبح بدرى النهارده ذهبت إلى بلدة شويت » . .

فقال الموسيقار : «شويت » دى بلدماما . . لازم حصلها حاجة . .

فأحسست أن الموسيقار قد تهيأ لسماع النبأ فرددت على الفور العبارة التى سمعتها من المعزين : العوض بسلامتك . . .

وانفجر الموسيقار باكيا ، وصرخ إزاى ماحدش يقول لى . . إزاى أنت بالذات يامحمود ما تصحنيش . . مع السلامة ياماما . . مع السلامة يامن قاسيت الأمرين حتى كبرت وإخوتى . . إنا لله وإنا إليه راجعون .

وبكى ، وتركته يبكى . . إلى أن استراح . .

وقام ولبس ملابسه ، وطلب سيارة أحد أصدقائه وعدنا إلى قبر والدته . . ووضع على القبر باقة من الزهور . . وقرأ لها الفاتحة . . وظل يحاورها فى صمت حيث كنت أسمع همساً يخرج من فمه . . وتركته واقفاً حوالى نصف ساعة . . إلى أن أحس أهل البلدة بوجود الموسيقار بينهم . . وبدءوا يتجمعون ، فأخرجوه من أمام قبر أمه . . وخرجنا إلى الساحة التى أمام القبر ، وتقبل الموسيقار العزاء فى والدته وانصرفنا . . وظل مكتئباً مدة طويلة . . برغم قولى له : الحياة ممر وليست مقراً . . وبقى فى غرفته بالفندق ثلاثة أيام لا يغادرها .

وأذكر أنه فى عام ١٩٧١ قام الموسيقار بإحياء عدة حفلات فى القاهرة وكانت الإسكندرية هى الختام . .

وفضل الموسيقار أن نسافر بالقطار وكنا ثلاثة : الموسيقار وخطيبته السيدة سلوى القدسى وأنا . .

وفى القطار من القاهرة إلى الإسكندرية . . قابل صديقاً عزيزاً عليه هو رجل الأعمال محمد بركات ، ووقف الرجلان يتكلمان ، وكان أول سؤال سأله الموسيقار لصديقه : إزاى كوثر ؟

وقال السيد بركات كويسة ، ولا زالت فى صحة يحسدها عليها الصغار .

و « كوثر » هذه فرس كان يملكها الموسيقار وباعها إلى صديقه بركات . . وكان يعتز بها هى وحصان آخر اسمه « فارس العرب » .

وسعد الموسيقار جداً بأنباء كوثر وقال لصديقه إن شاء الله أنا راجع من الإسكندرية بكره بالليل بعد ماأخلص من الحفلة . . وعلى فكرة أنت راجع أمتى ؟

فقال الصديق بركات : إن شاء الله بكره برضه . .

فرد الموسيقار : إذن نتقابل يوم الاثنين بمنزلى الساعة الثانية بعد الظهر ، ونتغذى سوى ونروح نشوف كوثر . . وفارس العرب .

فقال الصديق : إن شاء الله . .

وسلم فريد على صديقه وجلس ، وهمس الصديق فى أذنى : أنا عاوزك . .

وذهبت معه نتكلم ، فقال لى : ياأستاذ محمود ، أنا وقعت فى مطب دلوقت . .

قلت له : خير ؟

قال : فريد أنت عارفه . . المواعيد . . مواعيد . . ولازم أكون عنده يوم الاثنين حسب الاتفاق . . لكن كوثر ماتت بمرض النجمة منذ أسبوع . . — وهو مرض يصيب الخيل دائماً — . . وأنا عارف أن فريداً رايح يغنى . . وأنا عارف حبه للخيل . . وأنا عارف اعتزازه بكوثر لأنها فرسة كويسة وهوكان معجب بها ومتعلق فيها . . أعمل أيه دلوقت ؟

فقلت له : خيراً مافعلت . .

وعدت وجلست أمام الموسيقار نتكلم فى الجو ، والحفلة ، واستاد الإسكندرية الذى تقام فيه الحفلة . . وجمهور إسكندرية ، وإيه اللى يغنيه فى هذه الحفلة ؟ ولكن الموسيقار كان يحس شيئاً . . وكان يريد أن يسألنى عن حديثى مع الأستاذ محمد بركات . . إلا أنه كان حساساً لا يحب أن يسأل عن أى شىء . . ولايدخل نفسه فى موضوع لا يهمه . .

ووصلنا إلى الإسكندرية وغنى ليلتها الموسيقار أغنية الربيع . . وكانت من أحلى المرات التى غناها . . وكان فى قمةالأداء . . وقمة السعادة . . وظل على المسرح ساعة ونصفاً . . يشدو بأغنيته وينصرف ، وكان الطقس رائعاً . . وكان الجمهور رائعاً . .

خرج الموسيقارمن المسرح سعيداً . . ووعد جمهوره بأن يعود بعد استراحة قصيرة .

وفى الغرفة التى كانت معدة لإستراحته ، كان الصحفى الكبير موسى صبرى يجلس معه ، ولاحظ أن الموسيقار قد أرهقه الغناء فمنعه من أن يغنى وصلة ثانية ، وعدنا إلى منزل

الموسيقار بالإسكندرية ، وجلسنا نتكلم ونبدى ملاحظاتنا على الحفلة . . وعلى الجمهور . . وعلى أداء الموسيقار . . وكان الموسيقار متضايقاً لأنه كذب على الجمهور ولم يعد له . . كما وعد . .

وبعد فترة بدأ الحديث فى مواضيع أخرى وجاء ذكر الصديق محمد بركات . .

فقال الموسيقار الراحل : ماتنساش يا محمود يوم الاثنين حنروح عند بركات نشوف كوثر » . .

ورأيت أن من واجبى أن أخرج الصديق بركات من ورطته فقلت : والله المشوار ده مالوش لازمة يا أستاذ ، خصوصاً وأن عندنا مواضيع أخرى ولازم نروح نسمع تسجيل الحفلة أحسن . .

وهنا نظر إلى الموسيقار . . ووجه إلى سؤالا : إيه اللى كان الأخ بركات بيقولك عليه فى القطار ؟

وكان السؤال غريباً منه ، إذا لم يتعود فريد أن يسأل عن شىء لا يخصه . . فقلت فى نفسى إن حاسته السادسة بدأت تعمل ، وكانت فرصتى أن أخبره بأن كوثر ماتت . .

ورأيت دمعة حائرة فى عين الموسيقار الكبير ، وقال : أنا إحساسى ماخابش ، معاك أنا حسيت أن فيه حاجة . . ياخسارة كوثر . . حقاً . . الموت نقاد . .

وهذا هو فريد . . صاحب القلب الكبير المريض ، أحب كل الناس . . وأحب حتى الحيوانات ، وليس غريباً عليه ذلك . . فلقد كان كله إحساس .

وربما من أجل هذه الحساسية كانت عصبية فريد تبدأ بمجرد أن يبدأ عمل .

لقد كان الموسيقار الراحل قلقاً دائماً على فنه ، فإذا أقدم على إنتاج فيلم تجده عصبياً حاد المزاج . . وكانت العقبة التقليدية التى تصادفه دائماً هى القصة الجيدة . . وكانت له شروط دائماً فى القصة : —

أولاً : أن يكون دوره فى الفيلم مطرباً أو موسيقاراً . .

• ثانياً : أن تكون القصة عاطفية ، ولم يكن ليبخل فى الإنفاق على القصة لأنه كان يعتبرها الأساس لأى فيلم ناجح .

وأذكر أنه بعد أن انتهى من فيلم « حكاية العمر كله » شرع فى البحث عن قصة جديدة ، واتصل بصديقه الكاتب الكبير الأستاذ إحسان عبدالقدوس الذى تواعد معه على الزيارة دون أن يفاتحه الموسيقار فى أى عمل ، وفى الموعد المحدد حضر الأستاذ إحسان لزيارته ، وكانت ليلة من ليالى الصيف . . وجلسنا فى شرفة منزل الموسيقار الراحل . . وبدأ الحديث شخصياً عن الحال والأحوال ، وكان الموسيقار متردداً فى مفاتحة الأستاذ إحسان فى الموضوع خوفاً من أن يرفض الكاتب الكبير ، وشدة حساسية من الموسيقار حتى لا يشعر الصديق الكاتب أن الزيارة . . زيارة عمل . .

وبدأ الموسيقار يتكلم عن الأفلام والإنتاج والأغانى . . وظروف مؤسسة السينما ، وعدم وجود إمكانيات الإنفاق على الأفلام كما كان يحدث فى الماضى ، وقال له الأستاذ إحسان :

ولماذا لا تعود للإنتاج يا فريد ؟ فرد الموسيقار : أنت عارف أسواق الفيلم المصرى أصبحت محدودة . . ومن الصعب أن أتحمل مخاطر التسويق والإنتاج فى هذه الظروف ولكن . . إذا أنت عملت لى قصة كويسة ممكن أقول . . فريد الأطرش يعود مرة أخرى للإنتاج بقصة لإحسان عبدالقدوس . .

ورد عليه الأستاذ إحسان : شوف يأخى فريد ، أنت فاهم أنا أقعد أكتب قصص تفصيل . مش ممكن كتبى موجودة فى السوق ، وممكن تختار منها اللى أنت عاوزه . .

ورد فريد : ياأستاذ إحسان ، أنا شخصياً ماأقدرش اطلع على الناس فى فيلم ودورى فيه مهندس ، أو دكتور أو محامى . . الناس راح تضحك على . . وأنا مش حا أكون صادق . . لأن دورى فى الحياة ليس مهندساً ، أو دكتوراً ، أومحامياً أنا فنان . . ولازم أكون فناناً فى الفيلم علشان يكون فيه صدق . .

فقام الأستاذ إحسان : كلامك صحيح يا فريد . . لكن ليس فى استطاعتى أن أكتب حاجة متفصله عليك . .

وبعد إنتهاء زيارة الأستاذ إحسان ، جلس الموسيقار مهموماً وقال : شفت إزاى يامحمود . . دائماً العقبة اللى بتصادفنى هى القصة . . وأنا مش ممكن أقدم على عمل أنا غير مقتنع به . . تصور أنا اطلع فى فيلم واقف زيك واقول : ياحضرات المستشارين . . مش معقول . يبقى وقار فى المحكمة ، وبعد خمس دقائق أقابل البطلة وأروح أغنى حد يصدقنى بذمتك . .

وقلت له : عندك حق ياأستاذ فريد . . وعلى أى حال نبحث عن قصة . .

وظل البحث جارياً إلى أن وجد قصة الكاتب الكبير توفيق الحكيم . . « الخروج من الجنة » والقصة معروفة ، وإذا كان الموسيقار قد وفق فى قصة ، فإن هذا كان لا يرضيه . . كان دائما يقول لازم يكون عندى على الأقل قصة أو اثنين جاهزين لأن الأغانى مش سهل الواحد يحطها فى الفيلم ، لازم يكون الموقف مناسب للأغنية ، وكلام الأغنية مناسب للموقف . . ودى مسألة تاخد وقت . .

وبدأ الموسيقار تصوير فيلم « الخروج من الجنة » وبدأت متاعب البحث عن قصة جديدة حتى تكون احتياطى لديه .

وبعد طول البحث لم يجد القصة التى ترضى مزاجه وتحقق أهدافه ، وعرض فى المنزل عشرات الأفلام الأجنبية التى تدور بطولتها حول حياة فنان ، وجد أن قصة فيلم « دادى لونغ لجز » مناسبة له ، واتصل على الفور بالأستاذ يوسف جوهر لاقتباس القصة ، وبعد الانتهاء من القصة ، اتفق مع السيناريست محمد أبويوسف على أن يكتب السيناريو والحوار ، وبعد عمل مرهق لمدة ثلاثة شهور دفع فيها الموسيقار كافة الأتعاب اللازمة لكاتب القصة والسيناريست قال : العمل اللى قاموا به الجماعة كويس وممتاز . . لكن هذا ليس الذى كان فى خيالى . . اللى كان على الشاشة

فى الفيلم الأمريكى حاجات إنسانية . . وحاجات تخلى المتفرج مشدود بالفيلم . . لكن للأسف يبدو أن الاقتباس عملية صعبة . .

وبدأت البحث عن قصة جديدة . . وقال له المخرج هنرى بركات : فيه قصة كويسة اسمها إيريانا فتاة شابة روسية ! ! وأنت مسافر باريس ابحث عن هذه القصة وهى تصلح لك مائة فى المائة . .

ويسافر الموسيقار إلى فرنسا ، وتصادف أن كنت فى عمل لجمعية المؤلفين فى باريس ، والتقينا ، ولاحظت فى صمت تام أن الموسيقار الراحل قد كتب اسم القصة لأكثر من شخص . . حتى موظف الإستقبال بفندق « جورج سانك » ورصد له مكافأة قدرها ثلاثمائة فرنك فرنسى جديد إذا أحضر له القصة . . وكان فى خروجه ودخوله من وإلى الفندق يسأل . . وقلت له : طيب أدينى اسم القصة .

وأخذت الأسم . . وذهبت إلى رصيف « سان ميشيل » بالحى اللاتينى فى باريس وبدأت البحث من العاشرة صباحاً حتى الثالثة بعد الظهر دون جدوى ، وظهرت أمامى خيبة الأمل التى سيسمنى بها الموسيقار عندما أخبره بأننى لم أجد القصة . . ومشيت فى شوارع الحى اللاتينى . . وبجوار جامعة فرنسا العتيدة « السوربون » وجدت محلاً صغيراً لبيع الكتب المستعملة ودفعت إلى صاحب المكتبة باسم القصة ، وكان رجلاً مسناً سألنى : ماالذى ذكرك بإسم القصة الآن ؟ فقلت له : الحقيقة أن لى صديقاً فناناً يبحث عنها ! !

فقال الرجل : هل هناك نصف ساعة تجلس معى هنا . . وسأبحث لك عنها . .

وبدأ الرجل يبحث فى رفوف المكتبة ، وبعد ساعة قال : عندك حظ . . وعند صديقك حظ . . وجدت لك نسخة . . هل تعرف آخر مرة طبعت فيها هذه القصة ؟

قلت : لا . .

قال : عام ١٩٢٥ . . .

ودفع لى بالكتاب ، ووضعت أمامه المبلغ الذى طلبه ، وانصرفت وأنا أطير من الفرح ، لقد حققت للصديق الموسيقار شيئاً ، ودخلت عليه فى الفندق فوجدته ثائراً . . كيف تأخرت عن موعدى معه . . وقلت : والله الموضوع كان مهم شوية . . !

وأخرجت من وراء ظهرى القصة ، ودفعت بها إليه . . وما إن قرأ عنوانها حتى تهلل وجهه ، وزال غضبه ، وكان نصيبى قبلة على جبينى . . وخمسمائة فرنك فرنسى جديد مكافأة على هذا العمل العظيم . .

وقال الموسيقار : الحمد لله ، الأستاذ هنرى بركات قال إنها حاجة كويسة . .

وجلس يقرأ القصة ونسى الغداء ونسى المواعيد ، وحملها وطار إلى بيروت . . وكان فيلم « الحب الكبير » .

وهذا هو الفنان الموسيقار فريد الأطرش ، يظل قلقاً ولا يهدأ إلى أن يجد ما يرضيه .

رحمه الله . .

محمود لطفى